تاريخ الأدب المقارن وتطوره

أ .بلعشوي سيدي محمد الحبيب
جامعة تلمسان

مقدمة:

ان الأدب المقارن هو العلم الذي تقوم فيه المقارنات و المفاضلات بين الآداب و العلوم المختلفة ،فقد فطر الناس على حب المفاضلة بين الوسائل التي ترمي إلى غرض واحد والموازنة بين الأنواع التي ترجع إلى أصل واحد، وقد ظهرت مثلا هذه الفطرة واضحة جلية حين ظهر الشعر، و تبارى في قرضه الشعراء.

"وليست المقارنة إلا ضربا من ضروب النقد ،يتميز بها الرديء من الجيد ، وتظهر بها وجوه القوة و الضعف في أساليب البيان : فهي تتطلب قوة في الأدب ،ومن هنا كان القدماء يتحاكمون إلى النابغة تحت قبته الحمراء في سوق عكاظ ، إذ كان في نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام.

وقد كلف الأدباء في مختلف العصور بالموازنة و المقابلة بين من ينبغون من الشعراء في عصر واحد فوازنوا بين امرئ القيس، و النابغة، وزهير،و الأعشى في الجاهلية و بين جرير، و الفرزدق، و الأخطل في الدولة الأموية، وبين أبي نواس، و مسلم ابن الوليد، و أبي العتاهية وبين ابن المعتز وابن الرومي ، وبين أبي تمام و البحتري في الدولة العباسية ،و كذالك عقدت الموازنات بين من نبغوا بين أولئك الفحول إلى العصر الذي نعيش فيه . ،وكتبت الجرائد المصرية و السورية عن الموازنة بين شوقي وحافظ ومطران، ولا يزال الأدباء مختلفين في حكمهم على من تقد مهم أو عاصرهم من الشعراء ، وقد تضاعفت هذه الموازنات و المقابلات في منتصف القرن التاسع عشر، بعد اتصال العالم العربي بالغرب. ".[1]

إن العلم الذي يدرس المقارنات يطلق عليه اسم الأدب المقارن ،وتوجد المقارنة كلما وجد الاختلاف و التناقض و الصراع بين العناصر المكونة للظاهرة الأدبية، هذه الظاهرة المولعة بالجديد و التشابه و التمايز في الأحداث التي تختزنه الذاكرة الإنسانية وفي هذا الطرح عودة إلى التركيز في هوية المقارنة ، كمصدر لابتداء التقصي و الانتهاء به ،فمن البديهي أن نخضع في كل عملية فكرية لنمط من المقارنة و من ثم يرى النقاد ،أنه لتقييم أي حدث أدبي ، فإننا نقارنه بالضرورة إما بأحداث موازية وقعت في الماضي ، أو بظواهر مشابهة له، ندرسها في الآداب الأجنبية المعاصرة.

إنّ "المقارنة من هنا هي حالة ملازمة لسيكولوجية الأفراد و الجماعات ولا تخص مجال الأدب وحده ، و هي بالإضافة إلى ذلك من العناصر المكونة لهرمنوتيك النثر .إذن يمكن للمقارنة من هذا المنظور أن تصبح حدا متحركا بين تداخل الاختصاصات ، الشيء الذي ينقلها من المحدودية إلى الشمولية كميزة ،كما لابد من تجديد تعريفها ، كلما دعت الحاجة إلى استعمالاتها ، حيت يعسر احتفاظه بالدلالة الواحدة في المعالجة الأدبية أو الشعرية الواحدة ، لتوالد سيكولوجيات باختلاف الفضاءات و الباحثين و الظواهر .

و إذا كانت سيكولوجية مقارنة الظواهر الأدبية حالة ملازمة لتفكير رجل الأدب ، فمن المشروعية أن نتساءل عن العلاقات التي تساعد على فهم هذه الظواهر الأدبية ، حيث تعنى مقارنتها " التقريب بين وقائع مختلفة و متباعدة ، في غالب الأحيان بغية استخلاص القوانين العامة التي تخضع لها هذه الظواهر الأدبية ، فالمقارنة تفترض ضمنيا معرفة مسبقة ، و استعداد موسوعيا للملاحظة و القراءة و للتفسير و التأويل ، فلا يمكن للقارئ العادي ، في الأدب الوطني الواحد ، أن يقارن بل أن يوازن و يقابل و يعارض إذ لابد لكل مقارنة من أن تتم بين لغتي أدبين و فضائين ، في زمن واحد أو أزمنة متعددة و هو شرط أولى لرفع الالتباس من التسمية ، لا لوقفه نهائيا .[2]

1-اتجاهات الأدب المقارن :

1-2-المدرسة الفرنسية:

نشأ الأدب المقارن ، في جامعات فرنسا و أوروبا ،في حضن الأدب القومي ، و نتيجة لتطور تاريخي و حضاري، فقد كانت هناك روح عالمية ، عمت العالم الأوروبي في العصر الحديث

، نتيجة للاكتشافات العلمية و خاصة فيما يتعلق بوسائل المواصلات و الاتصالات . و سادت القارة فلسفات و أفكار عامة . فما إن يظهر المذهب الفلسفي أو الأدبي ، في فرنسا أو في غيرها ، حتى ينتقل بسرعة إلى البلدان المجاورة . حدث ذلك مع الكلاسيكية ، و الرومانسية ، و الواقعية .و حدث ذلك مع المذاهب السياسية ، مثل الماركسية و الرأسمالية ، و مع المذاهب الفلسفية / مثل الوجودية و العبثية.

و لم يقف جدار اللغة حاجزا بين التقاء الشعوب ، و السعي من أجل إشباع هذه الروح العامة ، فقد أخذت كل لغة تتطلع إلى جارتها ، و تتعرف على ثقافتها سواء عن طريق الترجمة أوالاحتكاك المباشر.

و ساير الناقد الأدبي هذه الموجة العامة ، فأخد يصعد بموازناته الأدبية داخل لغته القومية ، إلى موازنات مع نصوص كتبت بلغة أخرى ، بهدف استثارة الذوق ، و الكشف عن أصالة النصوص في لغته القومية ، و البحث عن درجة الابتكار عن هذا الأديب أو عند غيره.ثم تطور الناقد الأدبي بكل هذه الإشارات ، و أخد يلتمس الأدلة العلمية ، و الوثائق التاريخية ،التي تؤكد فكرة التأثير و التأثر.و هكذا ، أخد الأدب المقارن يستقل عن النقد الأدبي ، و عن تاريخ الأدب ، و يتحول إلى علم يهتم بالموازنات الأدبية ، خارج حدود اللغة القومية .

و قد انعكست هذه النشأة الأولى على واقع الأدب المقارن ، داخل جامعات فرنسا ، فقد وظف لخدمة الأدب القومي .

و انطلق من القضايا التي تتعلق بالأدب القومي ، لسبب بسيط ،

و هو أنه نشأ في حضن الأدب القومي ، و تطويراً لفرع من فروع النقد الأدبي ، و هو فرع الموازنات الأدبية .

يرى الناقد الفرنسي "فان تيجم "أن الأدب المقارن يحاول، ككل علم تاريخي، أن يشمل أكبر عدد ممكن من الوقائع المختلفة الأصل، حتى يزداد فهمه وتعليله لكل واحدة منها على حدة، فهو يوسع أسس المعرفة، كما يجد أسباب أكبر عدد ممكن من الوقائع».[3]

ومفهوم "فان تييجم"، هو مفهوم متقدم جدا، لأنه لا يتوقف عند حدود تقرير القواعد، وتأمل الدرس المقارن، بل ينبّه إلى المزالق والمخاطر، التي تعلق بذهن القارئ العادي، والمقارن المختص، على السواء، في سوء فهم المقصود بالمقارنة، التي قد توقفها عند حدود الجذب: من التعامل الآلي، المفرغ للتسمية من محتواها، والإبقاء بها عند مجرد تلبية (رغبة فنية)، أو (إصدار حكم تفضيلي).

إنّ مفهوم "فان تييجم"، للمقارنة، ينتمي إلى معارف الجيل الأول من المقارنين الفرنسيين، فهو: «... يخشى أن يظنّ أنّ المقصود بالمقارنة، هو تنضيد المتشابه، من الكتب والنماذج والصفحات من مختلف الآداب، لمعرفة وجوه الشبه ووجوه الاختلاف، لا لغاية أخرى غير إرواء حب الإطلاع وتحقيق رغبة فنية أو إصدار حكم تفضيلي ينتهي إلى تصنيف. ونكران أنّ هذا الضرب من المقارنة عمل شيّق جدا، مفيد جدا، وأنه يعين على إنماء الذوق وإذكاء التفكير، لكن ليس له قيمة تاريخية، ولا يتقدم بتاريخ الأدب خطوة واحدة إلى الأمام .

ولعلّ الحرص الشديد لـــ"فان تييجم"، هو ما دفعه إلى التعليم على الطابع الوضعي Positivisme للمقارنة بالمعنى العلمي، حيث ينبغي أن نفرغ كلمة (مقارنة) من كل دلالة فنية، ونصب فيها معنى علميا.

إلا أنّ مفهوم الدراسة المقارنة، يختلف ما بين العلمي والفني، فهذا الأخير ليس مجرد تصنيف تاريخي، للظواهر والموضوعات في الآداب، بل إنه مفهوم نقدي لبناء أدبي متكامل، لذلك جاءت (العلمية) عند فان تييجم لتعلن عن طموح الدرس الوضعي، وهو نفس ما كان يطغى آنذاك على التاريخ الأدبي، وعلى جلّ العلوم الإنسانية والمحضة، إلا أنّ ذلك لم يكن ينفي الأدبية عن المقارنة، بدليل دراسات فان تييجم، التي طبعت جيل المقارنين الأوائل، بل تعدتهم إلى الجيل الثاني. وقد تعمدنا هنا التعليم والتشديد على الجيل، بما تمنحه هذه المرحلة من مفهوم يتعدى الأشخاص إلى الحقب وأعلامها. ومن هذا الافتراض، يعود فان تييجم، موضحا بأنّ: «... تقرير المشابهات والاختلافات، بين قصيدتين كتابين أو مشهدين أو موضوعين أو صفحتين، من لغتين أو أكثر، إنما هو نقطة البدء الضرورية، التي تتيح لنا اكتشاف تأثر أو اقتباس أو غير ذلك، وتتيح لنا بالتالي أن نفسر أثرا بأثر (تفسيرا جزئيا)».[4]

وهذا التوضيح ضروري، لتبيان الثنائية التي تفترضها كل "مقارنة"، فهي دائما مقارنة، تستدعي في الذهن حالات: تشابه/ اختلاف لـــ: شاعرين /كاتبين/ موضوعين/ صفحتين/ لغتين... وهي ثنائية مكشوفة أي أنها الوجه الظاهر في عملية المقارنة، التي تخفي وراء هذا المظهر العديد من المكونات الأصلية والثانوية، والتي لا تمنح نفسها لأول وهلة، لأنّ تعقد علاقاتها، يجعلها تتمنع على القراءة الأحادية، ذات الفضاء المحروس، حيث تتم مواجهات مستمرة بين "الأنا" و"الغير"/ "الخصوصي" و"العام"/ "الأصلي" و"المترجم".

و عرف "جويار" الذي ينتمي هو أيضا للمدرسة الفرنسية الأدب المقارن على أنه " تاريخ العلائق الأدبية الدولية فالباحث المقارن يقف عند الحدود اللغوية و القومية ، ويراقب مبادلات الموضوعات و الكتب و العواطف بين أدبين أو عدة آداب " [5]

وبهذا فإن "جويار" يشير إلى الجذر التاريخي لهذا النمط من التخصص و لا سيما في إطار هذه المدرسة التي لا تعترف بالمقارنة بين أدبين أو ظاهرتين أدبيتين إلا بعد وجود ما يثبت التأثر والتأثير

و لا يتم هذا إلا بالاستعانة بكتب التاريخ ، بيد أن هذا لا يعني التطابق بين الأدب المقارن وتاريخ الأدب فلكل من التخصصين مجاله وحدوده.

كما أننا نصادف ، تعريفا للأدب المقارن- عند الفرنسي كلودبيشوا و الذي - يتوخى تداخل- الاختصاصات ويلّح الوظيفة التركيبية، كالتالي: « الأدب المقارن: وصف تحليلي، ومقارنة منهجية تفاضلية، وتفسير مركب للظاهرة اللغوية الثقافية، من خلال التاريخ والنقد والفلسفة، وذلك من أجل فهم أفضل للأدب، بوصفه وظيفة تميز العقل البشري».[6]

وهكذا يندمج "الأدب المقارن" في سلسلة من الثنائيات المنفصلة- سابقا- والتي عادت لتعمل في شكل عمليات: الوصف/ التحليل، المنهجية/ التقابلية، التفسير/ التركيب، التاريخ/ النقد، الفهم/ الوظيفة.

ولا يقف المقارن عند هذا فحسب، بل يجعل من الدرس برجا لمراقبة التبادلات بين الخاص والخصوصي، والعبور نحو العام، لحدّ « ينعت أعداء هذا النوع، الدراسات المقارنة، بمثابة جمركي الأدب، الذي يراقب على الحدود تسرب الكتب ويحصي الترجمات متحفزا لضبط كل ما يحمل أثرا للخارج».[7]

وهكذا يعلن الدرس المقارن عن اكتساحه لعدة فضاءات، ومعالجته لعديد من العلاقات ،كما يعالج الأدب المقارن، العلاقات الأدبية، بين ميدانين ثقافيين وأكثر، بل وبين آداب المعمور، من ثمة، يظهر أنّ الإدعاءات تغلب على إمكانيات الدرس، ففي عصر التخصصات، والوطنيات الضيقة، نرى تمرد الدرس المقارن على الخصوصي، ونزوعه نحو العام، لحدّ أنّ

تسمية كثير من شعب الدرس، تحمل ميولا إلى إطلاق "الأدب العام والمقارن"، بدل دلالة التسمية، التي كانت رائجة مع الجيل الأول لشعب: "الأدب المقارن".

أما الناقد "روني إيتيامبل فقد أعلن ، عن (شاعرية المقارنة)، الشيء الذي فاجأ جيله ومعاصريه، الذين لم يكونوا ينتظرون إعلان إيتيامبل" عن أنّ الأدب المقارن يؤدي إلى شاعرية مقارنة، أي إلى إيضاح الجوهر البنائي لأيّ عمل أدبي، حيث ينطوي على أنساق أساسية ينبغي أن يكون الكشف عن هذه الأنساق، مطمح عالم الأدب المقارن.[8]

و لم يكن إيتيامبل- المختص في الدراسات اليابانية- يخفي تحديه وتمرده على الحواجز التي تحول دون تحقيق هدف المقارن، للحدّ الذي تلاقي فيه دعواته نوعا من الاستخفاف بمثاليته المبالغ فيها، حين يحلم بمركز عالمي للأدب المقارن يكون مقرّه باريس، أو حين يصدر كتابه بعنوان: "المقارنة ليست عقلنة"، محطمّا بذلك وهم الاعتقاد في تقديس الأداة، التي يستخدمها في تطوير مفاهيمه والكشف عن أنساق التفكير، وليس هذا غريبا عن مواقف روني إيتيامبل، الذي دعا إلى مراجعة مفهوم الأدب العالمي (world literature)، بنفس القوة التي ردّ فيها على روني ويليك، من خلال كتاب "المقارنة عقلنة" والذي ترجم إلى الأمريكية، بنفس عنوان مداخلة روني ويليك، أي "أزمة الأدب المقارن" الذي هو في الحقيقة رد على افتعال الأزمة، أكثر منه مناقشة لها.

ومما أهّل روني إيتيامبل للحديث من موقع قوة عن "الأدب المقارن" هو موسوعيته وتعدد نشاطاته وغزارة إنتاجه، وهي شروط يؤكد عليها الدرس المقارن، الذي يتبنى الرغبة في معرفة كل شيء.

ان علم الأدب المقارن عند أنصار المدرسة الفرنسية يعتمد على عاملين أساسيين هما :

1-2-1اختلاف اللغة :

يشترط أن تكون الآداب التي تقارن مكتوبة بلغات مختلفة فمهما كانت الموازنات بين أدباء لغة واحدة على قدر كبير من الأهمية فهي تساهم في خدمة آداب اللغة القومية إلا أن هذه الموازنات لا تعد من الأدب المقارن في شيء فمثلا إذا عقدت موازنات بين شعر أبي العلاء و شعر أبي العتاهية في الأدب العربي ،فان هذه الموازنة لا تخدم إلاّ اللغة العربية وحدها ،و لا تخدم الأدب العالمي ،أو لو جاز القيام بموازنة بين أدب" شكسبير" و أدب "شارل ديكتز" في الأدب الإنجليزي ،فإن مثل هذه الموازنة تخدم الادب الإنجليزي لكنها لا تخدم الأدب العالمي كما لا تدخل في الأدب المقارن لوحدة اللغة بينهما.،أن أصحاب هذا الرأي يرون أن اللغة هي الوعاء الذي تظهر فيها الآداب ،و على هذا يجب أن يكون هذا الوعاء اللغوي مختلفا في حالة الأدب المقارن. كما يرون أن المقارنة بين شاعر كتب بالعربية في الجزائر، وشاعر كتب بالعربية في لبنان أو سوريا أو أوروبا لا يعد أدبا مقارنا مهما تباينت و اختلفت الظروف البيئية و الاجتماعية و العرقية بين هؤلاء ،فالأمر الأساسي هو اختلاف اللغة، مهما تباينت العناصر و العوامل الأخرى المؤثرة في اتجاه الأدب.

1-2-2العلاقات التاريخية :

يعد العامل التاريخي أيضا عند أصحاب المدرسة الفرنسية عنصرا لا يمكن الاستغناء عنه في علم الدراسات المقارنة اذ أن أصحاب هذه المدرسة يعطون أهمية بالغة من أجل أتباث أن الموضوعات التي تقارن قد قامت بينها صلات تاريخية، كانت سببا في التأثير و التأثر، كما تعني هذه المدرسة بإثبات أن الأدبين اللذين يقارن بين إنتاجهما الأدبي ،قد اتصل أحدهما بالأخر وتأثر به ،وأنتج أدبا فيه الكثير أو القليل من أوجه هذا التأثر،لكن ليس معني الاتصال هنا ،أن يكون اتصالا مباشرا وفي فترة زمنية واحدة، بل قد يكون أحدهما لاحقا للأخر بعدة قرون. ولكن قرأ له وانفعل بإنتاجه و أثمر هذا

الانفعال في انتاج أدب متأثرا بذلك الادب ،فاذا أثبت أصحاب هذه المدرسة وجود الصلة التاريخية ،دخلوا في مناقشة أوجه الاختلاف و الاتفاق بين الادبين موضوع الدراسة المقارنة ،وعنوا عناية فائقة بإثبات أوجه التأثير و التأثر فيما بينهما ،و هل كان الأديب اللاحق مجرد ناقم أو مترجم أم أنه قد فاق الأديب أو الشاعر السابق وزاد على أفكاره الجديد من الأفكار الثي تتفق و روح العصر و ظروف المجتمع الذي يعيشه.

على أن هذا الاتجاه التاريخي الذي ساد وجوده نحو قرن من الزمان ، بدأ منذ بداية الخمسينيات في هذا القرن يجد معارضة هنا وهناك ونقدا يوجه إلى فرع أو إلى آخر من فروعه ،وكانت موجة المعارضة قد بدأـــ في الجانب الأمريكي فيما عرف باسم أزمة الأدب المقارن ،وقد شكلت هذه الموجة اتجاها منهجيا ثانيا، ومن هنا فإن هذا الاتجاه سوف يحمل فيما بعد اسم المنهج النقدي الاتجاه الأمريكي .

2- المدرسة الأمريكية:

تتميز تعريفات أعلام المدرسة الأمريكية، التي تتخلص من تاريخية ووضعية المدرسة الفرنسية، بتروح هؤلاء إلى نوع من المقاربات المنهجية، التي تعتمد الخضوع إلى تحليلاتها، فيما يطلق عليه النقد الجديد، وكذا الانفتاح على تداخل- الاختصاصات، التي تجعل المقارن في وضعية يتمكّن معها من تجديد أدواته وموضوعاته، فهاري ليفين يعتبر "الأدب المقارن" مجموعة من المبادئ التي يحسن الأخذ بها عند مناقشة الأدب، أيّا كان نوعه ومصدره وهو من هنا لا يميز الأدب المقارن عن الأدب ككل، أو عن جذوره التعبيرية، التي تجد منابعها في فنون أخرى، يستحيل بدونها التعامل، مع المقارنة أو مع الأدب.[9]

ونفهم بذلك أنّ على المتعامل مع الأدب المقارن ألا يعزل الدرس عن أدبيته، أو استلهاماته في العلوم الإنسانية، وهو إدراك فات الجيلين الأولين، في المدرسة الفرنسية، بينما جعل الجيل الثالث، منقسما على نفسه، بينما تحسم المدرسة الأمريكية في الأمر، وتجعل من: "الأدب المقارن" علم دراسة العلاقة بين الأدب من ناحية، وبين ميادين المعرفة الأخرى، بين الأدب والتصوير والنحت والمعمار والموسيقى، وهو نوع من التداخل بين التعبير الأدبي وصور التعبير الأخرى، فالشعر الغنائي يستدعي في كثير من الحالات التعامل مع الموسيقى والغناء، كما يستدعي المسرح معرفة بوسائل التعبير الجسدي، وتقنيات الحوار الروائي تتداخل وتقنيات السيناريو السينمائي، كما أنّ علم الأدب لا يستطيع التخلص من علم اللسانيات. من ثمّ، يكون الدرس المقارن نقطة التقاء، تدفع إلى اعتبارالأدب المقارن علما يزود القارئ بوسيلة تمكّنه من النظر إلى الأعمال الأدبية المنفصلة في الزمان والمكان، دون اعتبار للحدود الإقليمية، وهو يرتبط في ذلك بالنشاط الإنساني كله، محيطا وملمّا بالظواهر الأدبية، بغض النظر عن فضاءاتها ومناهجها المختلفة، والتي تستهدف جميعها الفهم الأدبي.

و يمكن تعريف "الأدب المقارن" عند رواد المدرسة الأمريكية بأنه دراسة أيّة ظاهرة أدبية. من وجهة نظر أكثر من أدب واحد، أو متصلة بعلم آخر أو أكثر. ولا نجد التشديد على هذا الإدراك للدرس، عند دارس دون آخر، بل يتقاسمه أغلب الدارسين الأمريكيين،

ان التركيز على إشكالية العلاقات يكاد يكون الهم الأساسي في تأمل الدارس المقارن، فالأمريكي هنري ريماك (H. Henry Remak) يعرّف الأدب المقارن كدراسة للعلاقات بين الأدب ونواحي المعرفة الأخرى، بما فيها الفنون الجميلة/ الفلسفة/ التاريخ/ العلوم. ويتصدى "الأدب المقارن" من ثمة، إلى المقارنة بين أدب وأدب/ أدب وآداب/ أدب ومجالات التعبير المخالفة للأدب. وتصبح المقارنة مفتاحا سحريا، تلتقي عنده مشارب ومعالجات أدبية.[10]

على الرّغم من أنّ كلمة "مقارنة" تبدو كأنها تعني أكثر من شيء واحد، طبقا للسياق، فالمقارنة بين أدبين، لا تبدو مطابقة لمقارنة الأدب بالتعابير المخالفة للأدب، فما يقصده هنري ريماك، هو حرية إلتقاط نقاط الاتصال ذات الدلالة، عبر مجال النشاط الفكري والتخيلي برمّته، لذلك يرى جون فيتشر: «إنّ ريماك، تعجل الخضوع إلى المعارضين، عندما سلم بأنّ الأدب المقارن "ليس موضوعا مستقلا"، ينبغي له أن يرسخ قوانينه الخاصة الصارمة، مهما كلفه ذلك، بل هو علم مساعد، حتى لو كانت الحاجة إليه ماسة، وحلقة وصل بين قطاعات أصغر من أدب ضيق الحدود، وجسر بين مجالات من الإبداع الإنساني، التي تتصل عضويا وإن انفصلت ماديا».[11]

وقد أخذ تضارب الآراء حول اصطلاحات وتعريفات الدرس المقارن من الدارسين وقتا طويلا، جعلت جون فليتشر يخلص إلى: « إنّ المقابلة العلمية الكامنة وراء أصل مصطلح "الأدب المقارن" تفتقر إلى التوفيق، فمن شأنها أن تثير توقعات مغالية. لقد أدّت بالعلماء (وبعضهم من البارزين) أن يتصوروا إمكان صياغة مجموعة من الوقائع المحصلة تحصيلا نهائيا، يستطيعون إشهارها بفخر، أثناء جدلهم مع النقاد المتشككين، ولذلك لا يجد المعارضون- أمثال ويليك- أيّة صعوبة في أن ينهالوا على مثل هذا المصطلح بسخريتهم».[12]

ومع كل هذا فقد اكتسب المصطلح شرعيته من التشبث باستخدامه نتيجة:

أ- فرضه لنفسه على الدارسين، من وجهات متعددة: مفهومية، علمية، تاريخية، ميدانية.

ب- تمكن الدرس المقارن من وسائط استيعاب ديناميزم تبادل التأثيرات، التي تفضي إلى العالمية.

وتظهر بذلك ضرورة فهم الصلة الوثيقة بين النقدي والأدبي/ الأدبي والمقارن، لأنّ في التشبث باصطلاح "الأدب المقارن" إلحاح على تشديد العلاقة بين وظيفة النقد الأدبي والأدب المقارن، من حيث نزوعهما إلى شاعرية وإبداعية أدبيتين، مما ينبني عليه افتراض جون فليتشر، إذ: « قد تكون المقارنة مدخلا يستخدمه فرع معين يتجاوزها في الاتساع، ولكنها تنحو- بالمثل- إلى أن تكون فرعا معرفيا في ذاته. ولقد أثبت ديفيد. **هـ.** مالون (D. H. Malon)، بكل جلاء، مكانة الأدب المقارن وأكد استقلاله، إذ لا يقوم عالم الأدب المقارن بالمقارنة، لأنه يريد أن يدرس أدبين أو ثلاثة آداب بدل أدب واحد فقط، ولكنه يريد أن يدرس أدبين أو ثلاثة آداب لأنه عالم في الأدب المقارن. ويمكن القول- بعبارة أخرى-، إنّ المقارنة- في الواقع- طبيعة أو طريقة معينة في التفكير، أساسها أنّ الجوهر يسبق الوجود. وقد تعتمد المقارنة على أدوات تحليلية، ولكنها- بحكم طبيعتها- اتجاه عقلي مركب، يهتم- كما يقول ريماك- بالانطلاق بالبحث الأدبي، عبر الحدود الجغرافية وحدود الأنواع الأدبية».[13]

ولا يحل النقاش النظري الدائر حول تسمية الأدب المقارن واستقلاله أو تبعيته بمجرد الخوض في النقاش، بل تثبته ممارسة الدرس منذ ينيف عن نصف قرن، أما استمرارية الجدل المتقطع حول الدرس فيفسر بالتحولات التي تطرأ على التاريخ الأدبي، وقضايا تدريسه في الجامعات.

فالقراءات المتوالية والمتتالية كانت ورائها حوافز متعددة، أهمها الخضوع لنتائج الأبحاث والمناهج، كعلامة على حركية، ترفض ثوابت فترات تاريخية سابقة.

وهكذا يعتقد جون فليتشر أنه: «إذا تمعنا في هذه التسمية أمكن لنا أن نتوقع من مسماها منهجيا يتطور، ليستقل عن غيره من فروع النقد الأدبي ولأن ذلك لم يحدث، ذلك لأنّ هذا الفرع عرف بعدم دقة تقنياته والاتساع الغامض لاهتماماته، فالأدب المقارن يتداخل مع التاريخ الأدبي والفكري ومع علم الاجتماع الأدبي، ومع علم الجمال، في كثير من مجالات هذه الفروع، بدل أن يطور منهجا خاصا به، دون غيره.

لذلك يرى البعض أنّ الأدب المقارن لا يعدو أن يكون من قبيل تحصيل الحاصل، ذلك لأنّ المقارنة في الدرس الأدبي، لا معنى لها- فيما يقال- سوى دراسة الأدب. لقد قال روني ويليك (...) إنه ثبت استحالة تحديد خصوصية موضوع الأدب المقارن، أو وضع تحديد منهجي متميز ينطوي على الخصوصية، أو يكون جديرا بالاحترام الفكري».[14]

فلسنا ندري هل من حظ الدرس المقارن أن يتداخل مع باقي الدروس الموازية والمتقاطعة معه، أو أنّ هذا التداخل، يمثل سوء حظ، يمنعه من إعلان استقلاليته، ويجعله خاضعا- في أدواته المنهجية- باستمرار إلى علوم خارجة عن اختصاصه فهو يتزود منها وبمقدار ما يتزود، بمقدار ما يعلن تفوقه.

والحق أنّ هذه الحالة، التي تعترض الدرس المقارن ليست نشازا أو استثناءا يمسه وحده، بل إنّ الأدب الذي يعمل الدرس المقارن في إطاره يكاد لا يستقل بدوره عن نظرية المعرفة، واللسانيات، والأنتروبولوجية، والسيكولوجية، والسوسيولوجية. فلا داعي لإقامة جدران وهمية بين الاختصاصات، بل ما يمكن أن يثير الاستفهام هو مدى الاستيعاب والتحويل الذي يصبح معه الدرس درسا مقارنا لا خليطا من الملصقات التي تفقده عضويته. ومن هذا المنظور يتدخل جون فليتشر في شبه تساؤل:

« فلو كان المنتظر من المقارنة في الدراسات الأدبية (سواء كان ذلك من قبل المؤيدين أو المعارضين)، أن تنتج نتائج ملموسة- أعني نوعا من الحقائق المثبتة شبه العلمية- فلن تكون المقارنة أكثر نجاحا من أيّ أسلوب نقدي آخر، بل قد تكون أقل نجاحا منه. وإذا كان بعض ممثلي المنهج قد انتهوا إلى بعض الإدعاءات اللاواقعية، فهذا أمر يؤسف له، ولكنه لا يلقي الشك- بالضرورة- على مبدأ المقارنة في ذاته. فلو أصبحت الغايات أكثر تواضعا، ولو صيغت بطريقة مختلفة، نوعا ما، فليس هناك مبرر يجعل من الأدب المقارن مسعى خياليا، فهو أبعد من أن يكون كذلك، فالمقارنة كانت بعدا متواترا من الممارسة النقدية منذ أرسطو، ولا تزال إلى اليوم مجالا يجتذب اهتماما شغوفا».[15]

فالمنظور الضيق للمقارنة هو ما يمنح نتائج محدودة، فلو تعاملنا مع ظاهرة المقارنة من المنظور الأنطولوجي والكوني لما وجدنا فقط أنها ممارسة تمتد منذ أرسطو إلى الآن، بل لكانت تصورا ملازما للإنساني في الإنسان، فنحن نقارن لكي نفهم، ونفهم لأننا نقارن.

فالمقارنة فعل هرمنوتيكي يتساءل باستمرار عن العلاقات كمصدر وجودي عن كينونة الكائن، بما هو كائن وبما عليه أن يكون.

إن علينا أن لا نحصر الأدب المقارن في اهتمامات أكاديمية محضة، لأنّ أهدافه ومهامه الحالية، تندرج أساسا في سياق أبحاث أدبية تخص الدراسات الجامعية ويكشف هذا الارتباط بالدراسات العليا عن نوعية التروع وشبه- نخبوية المتعاطين للدرس، وليس هذا عائقا، بل علامة على ارتباطه بمستوى من التأمل الفكري، لذلك ارتبط الدرس كذلك بالوطنيات، فكانت تسمياته متكيفة مع لغات هاته الوطنيات الأوروبية.

ويمكن القول بأنّ روني إيتيامبل قد لخص هذا الصراع الدائر حول التسمية ومسمياتها في "الموسوعة العالمية" معتبرا: "الأدب المقارن" وسيطا مدرسيا وعلميا لتقييم أصالة كل أدبين مع أنّ "مقارنة الآداب لا تصنع الآداب"».[16]

وبقدر ما يعدّ روني إيتيامبل ارتباط الأدب المقارن بالوطنيات، ويجعل من التسمية وسيطا لتقييم أصالة كل أدب، بقدر ما نجد الرومانسية حركة أولى في تأصيل الآداب المقارنة، وهو شيء يجب أن لا يغيب عن بالنا في كل تحصيل حاصل، بل لابدّ من استحضاره حتى نستكمل الصورة.

يمكننا القول أن أصحاب المدرسة الأمريكية يعتبرون الفكر البشري كلا متداخلا و متكاملا لا يتجزأ اذ لا يمكن فصل الإنتاج الأدبي عن غيره من أنماط الإنتاج الفكري الأخرى من علوم وفنون والدليل على هذا قيامهم بمقارنات بين الاتجاهات الأدبية و الاتجاهات الفنية كالموسيقى

و الغناء .

ويرى "رينيه ويليك"الذي ضرورة أن يدرس الأدب المقارن كله من منظور عالمي، ومن خلال الوعي وحدة التجارب الأدبية والعمليات الخلاقة، أي أنه يرى أن الأدب المقارن هو الدراسة الأدبية المستقلة عن الحدود اللغوية العنصرية والسياسية، وهو يعيب على المدرسة الفرنسية لأنها تحصر الأدب المقارن في المنهج التاريخي، بينما تتسع الرؤية الأمريكية لتربط بين المنهج التاريخي والمنهج النقدي، باعتبارهما عاملين ضروريين في الدراسة المقارنة.

أما فيما يخص عامل اللغة فلا يوافق أصحاب المدرسة الأمريكية على رأي المدرسة الفرنسية باعتباره شرطا أساسيا من أجل القيام ببحوث الأدب المقارن إذ أنهم –بدافع من نزعتهم القومية –يعدون الأدب الأمريكي على الرغم من كونه مكتوبا باللغة الإنجليزية ،مختلفا عن الأدب الإنجليزي المكتوب في انجلترا ،وذلك لأن الظروف الاجتماعية و البيئية مغايرة لمثيلتها في إنجلترا وعلى نفس النمط هل يمكن القول بأن الأدب المكتوب باللغة الإنجليزية في غربي إفريقية كنيجيريا و غانا يعد جزءا من الأدب الإنجليزي المكتوب في الجزر البريطانية ،مع أن الظروف البيئية و الاجتماعية و العرقية في غرب إفريقية جد متباينة مع الظروف البيئية و الاجتماعية والعرقية في الجزر البريطانية[17] على هذا فان أصحاب هذا الرأي يرون جواز قيام الأدب المقارن بدراسة مقارنة لهذه الآداب المكتوبة بلغة واحدة ما دامت الأمم مختلفة ومتباينة.

و اذا ألقيتا الضوء على الأدب المقارن في الوطن العربي نجد الكاتب و الناقد محمد غنيمي هلال من بين الأسماء التي لمعت في الوطن العربي في هذا المجال ، وينتمي هذا الناقد الى المدرسة الفرنسية،و قد اعتبر الأدب المقارن فرع من فروع المعرفة يركز المقارنة بين أدبين أو أكثر ينتمي كل منهما إلى أمة غير الأمة و القومية التي ينتمي إليها الأدب الآخر، وإلى لغة غير اللغة التي ينتمي إليها أيضا، وهذه المقارنة قد تتعدد و تختلف ميادينها فتكون بين عنصر واحد أو أكثر من عناصر أدبٍ قومي ما ونظيره في غيره من الآداب القومية الأخرى وذلك من أجل دراسة و الوقوف على مناطق التشابه ومناطق الاختلاف بين الآداب ومعرفة العوامل التي تتحكم في ذلك. كذلك فهذه المقارنة قد يكون هدفها كشف الصلات التي بينها وإبراز تأثير أحدها في غيره من الآداب، وقد يكون هدفها الموازنة الفنية أو المضمونين بينهما، وقد يكون هدفها معرفة الصورة التي ارتسمت في ذهن أمة من الأمم عن أمة أخرى من خلال مورثوها الأدبي ، وقد يكون هدفها هو تتبع نزعة أو تيار أو ما عبر عدة آداب...[18]

لقد استنتجنا مما سبق أنه يوجد اختلاف في تحديد مفهوم الأدب المقارن وقواعده من مدرسة فكرية إلي مدرسة فكرية أخري و من قطر إلي قطر آخر، فإننا نميل إلى اعتبار جميع الأعمال الأدبية المكتوبة بلغة واحدة و تحت ظروف بيئية واحدة ،ومهما اختلفت هذه الأمم التي أنتجت هذه الآداب في عداد الأدب الواحد لا تصح أن تكون مجالا لدراسات الأدب المقارن ،في حين أنه يمكن أن تدخل في اطار الأدب المقارن كل دراسة مكتوبة بلغة واحدة هذا اذا كانت الظروف الاجتماعية للأدباء الذين أنتجوها مختلفة و متباينة .

3-أهمية الأدب المقارن:

إنّ للأدب المقارن أهمية بالغة في خدمة الأدب القومي، و توسيع الدائرة التي يبحث فيها سواءٌ من حيث الأجناس الأدبية أو من حيث المواضيع التي يعالجها الأدب القومي و الأفكار التي تدور بين الأدباء في لغة معينة ، أن الأدب المقارن يفتح

الأبواب أمام أفكار جديدة مستعملة في آداب أخرى خارجية ،و هذا ما يعطي الفرصة لأدباء اللغة القومية للتأثير و التأثر ونقل أفكار جديدة وأنواع أدبية لم يكن للأدب القومي علم أو معرفة قبل اطلاعه على هذه البحوث المقارنة.

تكمن أهمية الأدب المقارن في فتح أفاق جديدة في الأدب القومي فقط،- بل تتعدى إلى أكثر من ذلك إذ أنها تبصر الباحث بضرورة إجلاء نواحي الأصالة في أدبه القومي و فصلها عن النواحي الدخيلة ،ثم بدله المزيد من الجهد لتعميق هذه الأصالة ،و الأخذ بأسباب التقدم و الازدهار النابعة من هذه الأصالة و المتفقة مع التراث الأدبي لأمته ، ولكن الأصالة هنا لا تعني الانغلاق على الذات، وعدم السماح للأدب القومي بالأخذ من الآداب الأخرى بما يدفعه إلى الأمام دون أن يفقده أصالته ،إذ ليس في مقدور أي أدب في العالم الآن أن يركن إلى العزلة و الانزواء ،مع توفر العديد من قنوات الاتصال بين الشعوب و اللغات ،سواء أكانت هذه القنوات صحفا أو إذاعات أو تبادل بعثات أو رحلات سياحية و ثقافية ..... إلى غير ذلك من وسائل الاتصال العديدة بين الشعوب في شتى أنحاء العالم. و لن يكون جزاء أي أدب قومي من هذا التعصب و الانغلاق إلا الجمود و التخلف، فقد حاول الأدب الإنجليزي تجنب التفاعل مع الآداب الأخرى ، بل مع آداب أخرى تكتب باللغة الإنجليزية كالأدب الأمريكي ،إذ كان يضن الإنجليز أن ما لديهم أفضل مما لدي غيرهم ،و أن أدبهم الإنجليزي لا يدانيه أي أدب آخر، وظلوا على هذا الظن فترة طويلة ،استطاع الأدب الأمريكي من خلالها أن يتقدم و يتطور ويغزو الأدب الإنجليزي في عقر داره ،و لم يستطع الأدباء الإنجليز أن يقاوموا، فاهتزت لغتهم هزة عنيفة أمام ما وفد عليها من المفردات و التعبيرات و الأساليب الأمريكية.[19]

و من فوائد الدراسات الأدبية المقارنة بالنسبة للأدب القومي كذلك، أنها تفتح الأدباء القومين على صورة بلادهم في الآداب الأخرى ،و بالتالي يستطيعون رؤية ما عليه بلادهم من خلال نظرة محايدة ،و ليست نظرة متعصبة نابغة من تعاطف أبناء البلد نفسه ،و بالتالي سيطلعون على أوجه القصور فيحاولون تخطيها و التغلب عليها ،ويدركون أوجه التوفيق و الازدهار [20]

للأدب المقارن فوائد أيضا بالنسبة لحركة الأدب العالمي، فان هذه الدراسات المقارنة ستمكن الباحثين من دراسة الظواهر الأدبية التي لم يقتصر وجودها على أدب قومي واحد بل اكتسب انتشارها صفة العالمية مثل دراسة المذهب الكلاسيكي و سيطرته على جميع الآداب الأوروبية خلال القرنين السابع والثامن عشر، أو دراسة انتشار المذهب الرومانسي في الأدب بعد ذلك. كما يهدف الأدب المقارن أيضا إلى العمل على زيادة التفاهم بين الشعوب ،و تقريب وجهات النظر بين الأمم المختلفة ،إذ أن اطلاع الشعوب على آداب أخرى يعد بمثابة نافذة تتطلع من خلالها على عادات و تقاليد تلك الأمم، و هذا ما سيعود بالمنفعة على الأدب القومي.

الخلاصة:

نخلص في الأخير إلى القول بأن علم الأدب المقارن و بحوثه ،قد أعطى دفعة جديدة لتطور وازدهار علوم أدبية أخري كالنقد الأدبي الحديث و تاريخ الأدب ،فالنقد الأدبي يدرس القيم الفنية الكامنة و يحاول تفسيرها و لا يمكن للناقد أن يحقق هذا إلا عن طريق اطلاعه على المنابع والمؤثرات التي استفاد منها الكاتب أو الشاعر من الآداب الأخرى وان للأدب المقارن فوائد كثيرة أعطته قيمة كبيرة في عصرنا ،وجعلته علما لا يمكن الاستغناء عنه لدراسة أي أدب أجنبي،فهو يرسم خط سير الآداب في علاقاتها بعضها ببعض، ويساعد على إذكاء الحيوية بينها، وتفاهم الشعوب وتقاربها في تراثها الفكري، وهو بعد ذلك يحفز على خروج الآداب القومية من عزلتها بالنظر إليها بوصفها أجزاء من بناء عام، لذلك التراث الأدبي العالمي. وهو إضافة إلى كونه مكملا لتاريخ الأدب، وأساسا جديدا للدراسات النقدية فهو مهم في

دراسة المجتمعات وتفهمها ودفعها إلى التعاون لخير الإنسانية جمعاء. يمكن للأدب المقارن أن يمثل جسرا للحوار بين الثقافات المختلفة ،من خلال إيجاد مواطن التأثير والتأثر بين النصوص الإبداعية لتلك الثقافات وتشخيص نقاط الاختلاف ،والائتلاف بين الأنظمة الثقافية والأدبية المختلفة.

قائمة المصادر و المراجع:

---

[1]– زكي مبارك ، الموازنة بين الشعراء ،دار الجيل بيروت– لبنان ط1، 1993 ، ص 7 .

[2] –سعيد علوش ،مدارس الأدب المقارن ،دراسة منهجية ،المركز الثقافي العربي ،ط1987،1 ص10 .

[3]– -PAUL VAN TIEHEM –LA LITTERATURE COMPAREE –PARIS-COLIN-1931 -P14 .

[4]– فان تييجم، المصدر السابق، ص 20.

[5] – ماريوس فرانسوا جويار:الأدب المقارن ، ترجمة د. محمد غلاب،مطبعة لجنة البيان العربي ، بيروت 1956 ، ص 5

[6]- Claude Pichois، La littérature comparée، Ed : Armand Colin، Paris، 1967، P. 176.

[7]- Lejeune، Littérature Générale et Littérature comparée، Ed : Menard، Paris، 1968، P. 39.

[8] –ينظر ،سعيد علوش ،المرجع السابق ،1987 ص13

[9] –SUSAN BASSNETT –COMPARATIVE –BLACKWELL-OXFORD UK –COMBRIDGE USA-P5.

[10] – –رينيه ويليك ، مفاهيم نقدية ، ترجمة د . محمد عصفور ، مطابع الرسالة ، الكويت 1987 ، ص. 318

[11]– جون فليتشر، نقد المقارنة، ت: نجلاء الحديدي، مجلة (فصول)، ع3، س3، 1983، ص 61.

[12]– جون فليتشر، المرجع السابق، ص 60.

[13]– جون فليتشر، المرجع السابق، ص 61.

[14]– جون فليتشر، المرجع السابق، ص 59.

[15]– جون فليتشر، المرجع السابق، ص 60.

[16]- R-ETTEMBLE COMPARAISON N’EST PAS RAISON ، GALLIMARD- P. 11

[17] ––محمد عبد السلام كفافي–في الأدب المقارن–دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي ،بيروت 1972ص33.

محمد غنيمي هلال –الأدب المقارن–دار العودة و دار الثقافة بيروت ط5 ص46 .

[19]– محمد غنيمي هلال، المرجع نفسه، ص431

[20] – بديع محمد جمعة– دراسات في الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، ط3، 2003، ص35.